

أهمية حضور العلم الجغرافي الأمازيغي ضمن الأماكن المحلية بجبال الريف: دراسة حالة الكتلة الكلسية بين تطوان وشفشاون

مصطفى احمامو، بوجمعة بونفاية، بكار المرتجي
باحثون حاصلون على الدكتوراه في الجغرافيا
جامعة عبد المالك السعدي، تطوان

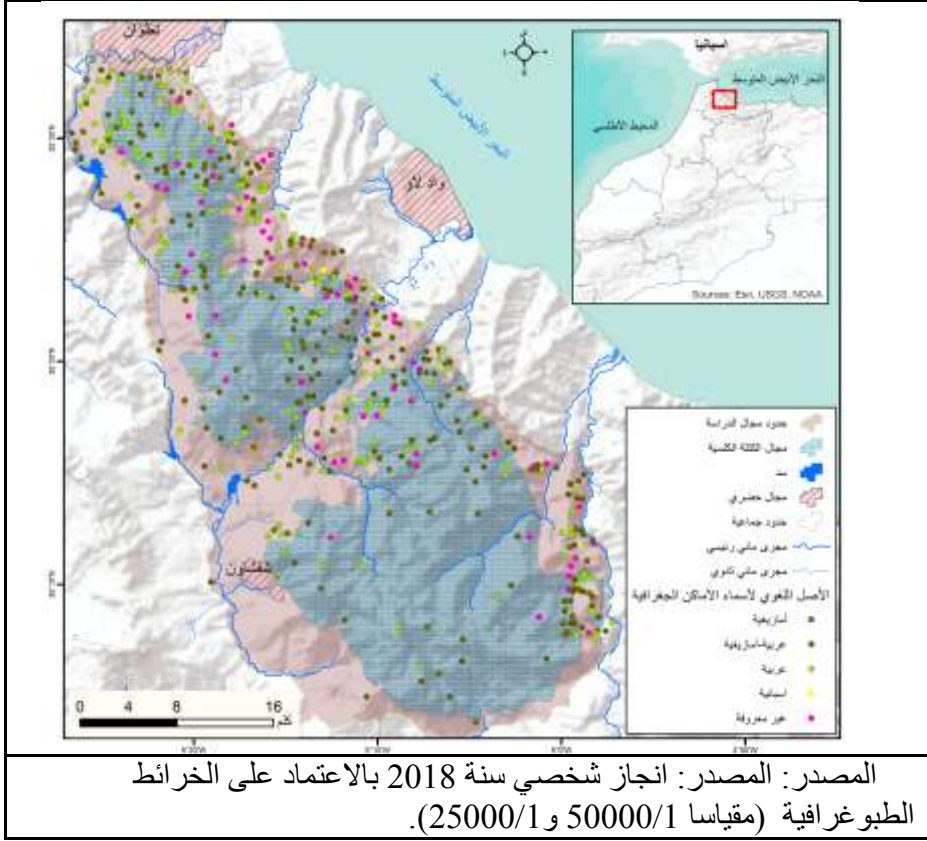
تعد دراسة الأعلام الجغرافية سبيلا من السبل التي تساعد الباحث الجغرافي وغيره في الإجابة عن بعض الإشكالات السوسيوإقليمية. في هذا الصدد، تعالج هذه الورقة البحثية أهمية حضور المصطلح الأمازيغي ضمن الأماكن المحلية في مجال جبلي بامتياز، يتعلق الأمر بالكتلة الكلسية وهوامشها، التي تمتد بين مدينتي تطوان وشفشاون (الريف الغربي، شمال المغرب)، وهي منطقة عرفت استقرارا بشريا قديما، وأهلة بالسكان حاليا (أزيد من 110 نسمة/كلم² حسب إحصاء سنة 2014)، تتميز بطابعها الريفي، وبواقع سوسيوإقليمي وأنساق ثقافية غنية ومتنوعة. وبالنظر إلى أن الورقة البحثية عبارة عن جرد للأسماء المحلية وتصنيفها وتعريفها ورصد دلالاتها، فإننا اعتمدنا المنهج التوثيقي والتاريخي والإحصائي والوصفي والتحليلي. وقد اتضح لنا، من خلال هذه الدراسة، أن العلم الجغرافي الأمازيغي حاضر بقوة سواء كأعلام مكانية أمازيغية صرفة أو كأسماء مرفوعة بأخرى عربية.

فكما هو معروف، لكل مجال جغرافي أسماء خاصة به، ترتبط بشكل وثيق بالمجتمع والإنسان الذي يعمره، بلغته وثقافته. وقد أسس علم الأعلام الجغرافية أو الأماكن (الطبونيميا) ليهتم بالأصل اللغوي الأنثروبولوجي لأسماء الأماكن الجغرافية. هذه الأخيرة "تحمل في طبيعتها معاني تشير أحيانا إلى طبيعة المكان من حيث وضعه الطبوغرافي أو الهيدروغرافي أو الجيولوجي، وهي تشير حيناً إلى فترة من الفترات التاريخية التي مر بها الموقع، كما تشير حيناً ثالثاً إلى بعض الظروف الاجتماعية وحتى بعض القضايا التي تتصل بالعقيدة" (التازي، ع. 1992: 27). كما "تسمح بتصور المعالم البيئية وإمكانية التحديد الجغرافي لمختلف الأوساط والطبقات البيئية في علاقتها مع الاستغلال البشري وضغطه على الوسط الطبيعي" (العويينة ع.

والميلودي ش. 1992: 59)، و"تساهم في تشكيل ثقافة المشهد الجغرافي" (Helleland 2012: 12)، ولها ارتباط بالهوية وإن كان ذلك يتسم بنوع من الغموض والتعقيد (Woodman 2014: 19). ويعتبر جردها وحفضها، في إطار قاعدة بيانات، عمل يخدم تدبير الشأن المحلي والوطني والتنمية والبحث العلمي (8: 2017 Abdellaoui). من ناحية أخرى "دراسة الأعلام الجغرافية ليست استهلاكاً معرفياً وإنما تشكل مدخلا أساساً للتعرف على المشهد من طرف الباحث ومن طرف واضع الخريطة ولا سيما الخرائط الطبوغرافية، إذ يجب تحري الدقة عند وضع الأعلام الجغرافية في الأماكن المناسبة لها" (الأسد م. 1992؛ 166). وعموماً تعتبر الطبونيميا العلم الذي بواسطته يمكن للباحث فهم مختلف تفاصيل الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية وترابطاتها وتفاعلاتها المختلفة في المجال الذي شكل ميداناً ومسرحاً لهذه الأحداث. وإذا كان علم الجغرافيا يهتم بدراسة التفاعلات القائمة بين الإنسان وبيئته، فإن دراسة الأعلام الجغرافية سبيلاً من السبل التي لا محيد عنها، بالنسبة للباحث الجغرافي، للإجابة عن بعض الإشكالات المجالية والمجتمعية. وارتباطاً بذلك يحاول هذا المقال دراسة مسألة الأماكن المحلية في منطقة جبلية تقع ضمن سلسلة جبال الريف (شمال المغرب)، يتعلق الأمر بالكتلة/الذروة الكلسية وهوامشها (الخريطة رقم 1)¹. وقد اعتمدنا في إخراج هذا العمل ثلاث مقاربات: بدءاً بجمع وقراءة بعض الدراسات العلمية ذات الصلة بموضوع الطبونيميا؛ ثم جرد أسماء الأماكن المتضمنة في الخرائط الطبوغرافية التي تغطي المجال المدروس؛ وأخيراً تصنيف هذه الأسماء حسب أصلها اللغوي من جهة، وحسب دلالتها² من جهة ثانية وتوطئتها مجالياً بالاستعانة ببرنامج نظم المعلومات الجغرافية (ArcGIS 10.2).

¹ -في إشارة موجزة عن المجال المعني بالدراسة: يمتد على مساحة تحوم حول 1300 كلم²، ويعتبر مجالاً انتقالياً على جميع الأصعدة، جيولوجياً ومناخياً وبشرياً، يتوسط وسط شبه الجزيرة الطنجية والساحل المتوسطي. ويمكن الجزم بأنه كيان يحدد بجلاء جغرافية شبه الجزيرة الطنجية، حيث يعتبر مصدر الحياة؛ فالذروة الكلسية بموقعها هذا، تشكل عوارض طبيعية تؤثر في مناخ المنطقة وتضاريسها وهيكليها الجغرافي. من تجليات ذلك، يعود لها الفضل الكبير في ازدهار وتنوع الموارد المائية، حيث تغذي وتزود -باعتبارها خزاناً طبيعياً للمياه الجوفية- المدن والمراكز والمدن والمداشر بالماء المستعمل في السقي والصالح للشرب وإرواء المواشي ولتوليد الطاقة الكهربائية، وهي فضاء لصون التنوع البيولوجي والغطاء النباتي، كما تعتبر رأسماً ثقافياً غنياً وخزاناً بشرياً (198.263 نسمة سنة 2014) ساعد على تأكيد الخصوصيات الأصلية لسكان شمال المغرب. إدارياً ينتمي هذا المجال إلى إقليم تطوان وشفشاون (جهة طنجة تطوان الحسيمة)، تنقسمه 15 جماعة قروية، 9 منها تنتمي إلى إقليم تطوان و 7 إلى إقليم شفشاون.

² -استعنا في هذا الصدد بباحث في الثقافة الأمازيغية.



خريطة رقم 1:

توطين المجال المدروس ورصد توزيع الآسامي المحلية حسب الأصل اللغوي

1- الأعلام الجغرافية: تعدد الأصول مع هيمنة العلم الأمازيغي

إن الجرد الذي قمنا به، لأسماء القبائل والمداشر والمواضيع التي يضمها المجال المدروس (556 علم جغرافي)، مكننا من اتباع تصنيفات مختلفة، حيث اتضح لنا أن العلم الجغرافي الأمازيغي حاضر بقوة بأزيد من خُمس (22,16%) مجموع الأعلام، ثم حضرا ككلمات مرفوقة بأخرى عربية بنسبة قاربت الثلث (32,33%)، بينما شكل المصطلح العربي ثلث الأعلام، وما تبقى ذات أصول مختلفة، ثم أسماء لم نستطع فك شفرات أصولها (الخريطة رقم 1). أما بالنسبة للمداشر المشكلة للمجال المدروس، قمنا بتصنيفها إلى مجموعات اتخذت تقسيماً خماسياً وذلك على الشكل الآتي:

1-1- الأماكن الأمازيغية: انتشار كبير يعم جميع أرجاء المجال المدروس

بالنسبة لأسماء المداشر، قسمناها إلى عدة مجموعات حسب مورفولوجية الكلمة (الخريطة رقم 1):

- أعلام تبدأ بحرف (ت) وتنتهي بحرف (ث): تاورارت وتامسانوت وتزروت وتاجيت وتقراوكت وتازغت وتغزوت وتدممت وتسفت وتمزخت وتسجوت. من حيث الموقع الجغرافي تتوطن نصف هذه المداشر ضمن المجالات الانتقالية بين الذروة الكلسية الجنوبية والوسطى، أي فوق الحادث التكتوني لواد لاو؛ وتنتشر أيضا في الجنوب الشرقي والأجزاء العليا من تراب قبيلة بني سعيد؛

- أعلام تبدأ بحرف (ت) وتنتهي بحرف (ن) وهي: توراغين وتيفراوين وتورطين وتغوين وتسفتان وتروكان وتغزوان. هذه الأعلام التي تنتهي بحرف النون، من المنظور الصرفي التركيبي، غالبا ما تكون جمع لكلمة، فعلى سبيل المثال: تيفراون جمع تافراوت³، وتتوطن هذه المداشر، فقط في إقليم شفشاون، حيث تنتشر في مناطق الاتصال وتغيب وسط الذروة الكلسية؛

- أعلام تبدأ بحرف (أ) وتنتهي بحرف (ن) وهي: في إقليم شفشاون نجد: أمهارشين وأغرمان وإزرافن وأزيلان وإيموراسن وأكان وأكلوان وإفلان وإشقلان وإمزردين وإشريطن وإلوكان وإحناشن وإسقيفن وإجورين وإخلادن وإمدرنان واحمدائن. وفي إقليم تطوان نجد: إبوهارن وإزنجان وانجرن واسمارن واموكرن واكرزن وابرقن واكان واكاورن وايرنن واسكن واشوشن وافرتن واكيانن واسوماتن واخشافن وادمامن وأبجيون واحلوبتن وامرزقن واكمرن وادرن والبلطن واسلان وأودن واسوحنان. وهي مداشر تحضر في كل جماعات المجال المدروس، باستثناء جماعتي باب تازة ودار بن قريش؛

- أعلام مختلفة من قبيل: ماكو وألدال وأزغار وأكلا وتارية وتسوكة ومشكرالة وأوكولال وشوبين ومكداسن...إلخ.

2-1- الأماكن العربية: معظمها مركبة من كلمتين

معظم هذه الأسماء مركبة، حيث تبدأ بصفتي "بني" و"بو" منها: القبائل التي تشكل كنفدرالية غمارة كبني زجيل، بني سلمان، بني منصور، بني خالد، وقبائل بني حسان وبني سعيد وبني حزم. لكن، هذا لا يمكن أن يكبح الأصل الغماري ما قبل الإسلامي لهذه القبائل (El Gharbaoui, 1981: 372). ومن الأسماء المركبة للمداشر، نجد: بني زيد، بني بوحلو، بني عيدون، بني أمحمد، بني فتوح، بني صابر، بني صالح وبو خالد وبوهدون وبوبنار وبودقيق...إلخ. كلها أسماء تنتشر بهوامش الذروة الكلسية، ما يعني أن العربية لم تستطع أن تفرض وجودها طوبونيميا داخل الذروة الكلسية إلا في أماكن محدودة. ثم هناك أسماء تبدأ بصفة دار: دار الغازي، دار الخياط، دار الراعي، دار خرخور...إلخ، ومجاليا تنتمي معظمها إلى تراب قبيلة بني حزم القريبة من مدينة تطوان.

³- تافراوت وسيلة لنقل المياه من ضفة إلى أخرى.

3-1- أسماء ذات أصل إسباني: حضور مهم في الكيانات الحضرية وضئيل في المجالات الريفية

إن أهم ما يمكن ملاحظته، أن الاستعمار الإسباني، لم يترك بصماته في مجال دراستنا، على المستوى الطبوغرافي، إلا عندما يتعلق الأمر بالمدن وهوامشها وبعض المراكز الحضرية الناشئة، مثل باب تازة الذي يشتمل على جملة من الأعلام تعود إلى اللغة الإسبانية من قبيل "حومة الكروشي" بمعنى مكان التقاء الطرق، و"حومة الكورنة" ومعناها المجزرة، و"حومة البنديرا" أي العلم، و"حومة البريسيبي"... إلخ. وفي هوامش المدن، نجد طوريطة (Torretta) في جماعة الزيتون التي تعني نافورة المياه، وترانكت (Trenca) في جماعة الزينات والتي تترجم إلى العربية بالكسر/المكسور أو المقسم. أما في المجالات الريفية، فنجد منطقة البريسا "Presa" شرق دار أقوباع والتي تعني السد، وكرانخة "Granja" في شمال مركز الدردارة التي يقابلها عربيا المزرعة، وميركادو (mercado) أي السوق بعالية بني زيات.

3-1- أسماء يصعب استنتاج مصدرها

هي أسماء لم نجازف بتصنيفها ضمن خانة الأسماء العربية أو الأمازيغية أو الأصول الأخرى المختلفة، نتيجة صعوبة استنتاج مرفولوجيتها، فقد تكون أمازيغية تغير مخرجها الصوتي لاحقا أو عربية غير من طريقة نطقها مع مرور الأزمنة أو ذات أصول أخرى لا ندرها. وعموما هي مجموعة من المداشر على الشكل التالي:

- عصفورت ومتاع في جماعة بني سلمان: وهما كلمتان قريبتان إلى الاسمين العربيين عصفور الذي هو الطائر ومتاع التي تتخذ مجموعة من المعاني؛
- شروطة والكباش واهلال في جماعة الواد: الأولى قد يكون أصلها شرودة حيث حورت لاحقا على غرار "الببطة" مقابل البيضة و"الطهر" مقابل الظهر، ليبقى إذن، هل يتعلق الأمر بشرودة التي تقترب من الكلمة العربية شروود أم لها دلالة أخرى؟. كما صعب علينا معرفة أصل كلمة الكباش. أما أهلال فهي أقرب من حيث مرفولوجيتها إلى العربية؛
- عطا في جماعة تاسيفت: نظرا لوجود كلمة عطا في مناطق أخرى، سواء داخل المغرب "أيت عطا" وهي قبائل أمازيغية تستوطن الجنوب الشرقي للمغرب، أم خارجه خاصة في الصحراء الشرقية لمصر "وادي عطا"، فإنه قد صعب علينا تصنيفه ضمن هذه الخانة أو تلك؛
- كامل في جماعة اسطيحة واحكم في جماعة زاوية سيدي قاسم وأحريق في جماعة الزيتون: بالنسبة للأسمين الأولين: هي أسماء قد تعود إلى أعلام بشرية سميت بها لاحقا هذه المداشر. أما أحريق، فيظهر من خلال شكله أنه أقرب إلى الكلمة العربية "الحريق".

3-1- الأماكنية المختلطة : مزيج بين الأمازيغية والعربية

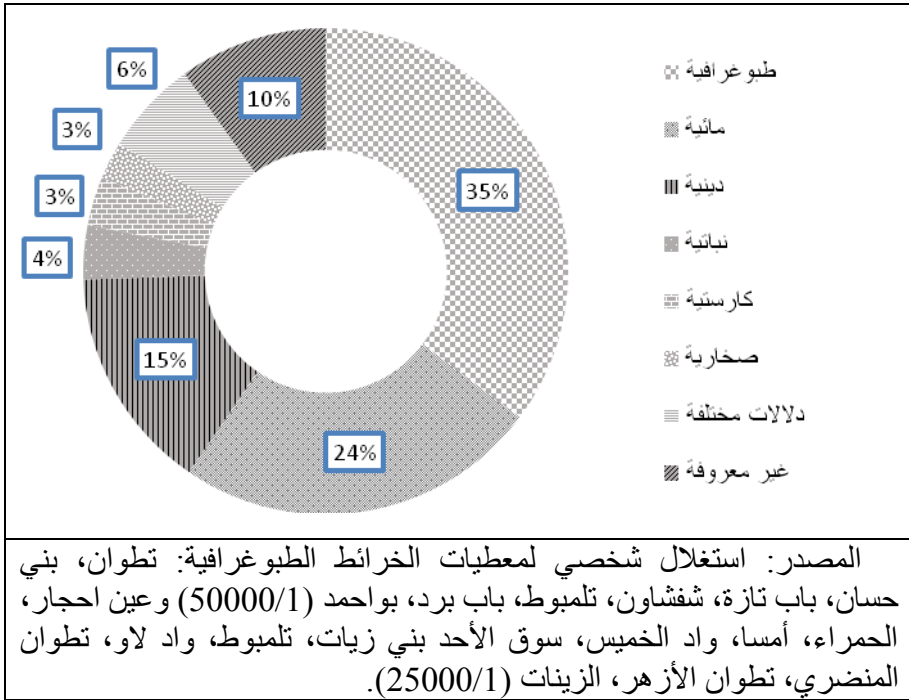
امتزجت فيها العربية بالأمازيغية من قبيل تارية العليا وتارية السفلى، أزغار الفوقية وأزغار السفلية وباب تازة ودار أقوباع وخزان لاو وهي أماكن تقع في هوامش الذروة الكلسية، خاصة ضمن الكتلة المحصورة بين واد لاو ومنطقة أسيفان. عموماً، إذا كان التصنيف السابق الذي اعتمدنا فيه معيار الشكل وأصل الكلمات، فائدته محدودة، فذلك يعني ضرورة تتبع واتخاذ تصنيف آخر، نتقصى من خلاله دلالات هذه الأعلام الجغرافية. وتعتبر اللغة الأمازيغية أبرز مفاتيح فهم مختلف تفاصيل الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية. ولما تعرضت هذه اللغة إلى طمس وتحريف وتشويه؛ إذ نعلم مثلاً كيف أصبحت "تطاوين" تسمى بـ "تطوان" ... (زاهد م. 2008)، فإن البحث في هذا الباب يعترضه مصاعب عدة، من قبيل إشكالات الدلالة والتسمية ذلك أن "استيعاب أو إعادة بناء طوبونيم ما في الأمازيغية، يستلزمان، أولاً وقبل كل شيء، الوقوف على النطق الصحيح والسليم لهذا الطوبونيم في سياقه اللساني الأصلي. ذلك أن اللغة الأمازيغية، هي أساساً لغة شفوية، وأنها كتبت في أغلب الأحيان بحروف غير حروفها؛ وبما أن أحرف هذه الأبجديات لا تتوفر على بعض قيمها الصوتية، فإن تلك الكتابة لا تؤدي وظيفة النطق الصحيح والسليم الذي يتوقف عليه استيعاب أو إعادة بناء دلالة ذلك الطوبونيم" (آيت باحسين ا. 2005: 246). لذلك، يجب "توفير مجموعة من الشروط هي: جمع الأسماء وتصحيحها نطقاً وكتابة، وتفسيرها ومقارنتها، وأخيراً تصنيفها. ولكي يكون العمل أكثر وضوحاً وموضوعية يجب أن يتم في إطار مجموعات متعددة التخصصات في ميداني العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية..." (كربوط م. 1992: 123). وفعلنا نهجنا، كما تقدم، هذا السبيل، بتنسيقنا مع باحثين متخصصين في الثقافة الأمازيغية. ومع ذلك، لم نستطع كشف النقاب على كل الأعلام، فأفردنا، كما أسلفنا، قسماً خاصاً بالأسماء المجهولة الأصل.

2- دلالات الأعلام الجغرافية: تنوع كبير ينم عن ماض عريق وحقائق جغرافية وتاريخية منسية

بعد جرد الأسماء المتضمنة في الخرائط الطبوغرافية (1/25000 و 1/50000) التي تغطي المجال المدروس (556 علم جغرافي)، حاولنا تمحيص دلالاتها اعتماداً على معاجم ذات الصلة بالمصطلحات الأمازيغية وكذلك اعتماداً على الأبحاث الميدانية، مع الإشارة إلى عدم المجازفة في تأويل بعض الأعلام الجغرافية - رغم عثورنا في بعض المعاجم الأمازيغية-العربية، على أسماء قريبة من حيث مخرجها الصوتية لكلمات مترددة بكثرة في مجال الدراسة- ومن ثم أدرجنا لها فئة خاصة كأسامي صعب استنتاجها (الرسم البياني رقم 1 والخريطة رقم 1).

رسم بياني رقم 1: توزيع الأعلام الجغرافية في المجال المدروس حسب

دلالاتها (%)



رسم بياني رقم 1: توزيع الأعلام الجغرافية في المجال المدروس حسب دلالاتها (%)

2-1- التضرس الجبلي أفرز تعددا واضحا لأعلام ذات دلالات طبوغرافية
تتعدد الأعلام ذات الصلة بالطبوغرافية، حيث تمثل أكثر من ثلث الأسماء المجردة، (الرسم البياني رقم 1) منها ما يعود أصلها إلى اللغة العربية من قبيل: "الطَّلْعَة" و"الهَيْطَة" و"الحفرة" و"الهوتة" و"الحَيْط" و"الصور" و"الحافة" و"الظَّهَر" و"العَقْبَة" و"باب" و"جبل" و"كودية" و"عالي" و"فوقي" و"تحتي" و"سفلي". ومنها يعود أصلها إلى الأمازيغية كأزغار ومعناه السهل المحاذي لسفح السلسلة الجبلية أو الهضبة المستطيلة (زاهد، 2008) و"تيزي" ومعناه ممر و"أورير" ومعناه هضبة وأسْمُر ومعناه السفح المشمس وأمالو (تامالوت) والذي يعني السفح الظليل وتغزوت التي تعني أرض وطنة في السليل. هذا التعدد في الأعلام يبرز أيضا من ناحية أخرى، أهمها عنصر الماء.

2-2- ربع الأسماء المكانية مرتبطة بالماء
تشكل ربع مجموع الأسماء الطوبونيمية المجردة، (الرسم البياني رقم 1) وهي كما يلي:

- أسماء المداشر : تحمل مجموعة من المداشر في شمال المغرب اسم أغبالو الذي يعني باللغة العربية العين. وإذا كان مجال دراستنا يغيب فيه هذا الاسم كتجمع بشري قائم الذات، فإنه يحضر بقوة في هوامش النوى السكنية. ومن المداشر التي لها مدلول مائي، نجد تلمبوط التي تعني "العين العليا"، ومدشران يحملان اسم أمزار⁴ بمعنى الشلال ((النفيسي ع. (ق 12هـ/18م) (تحقيق أفا ع، 2008: 130)) ، وآخر ينعت بعين الرامي... إلخ ؛

- أسماء المجاري المائية: منها الخندق والواد وهما كلمتان عربيتان، الفرق بينهما أن الأول قليل الأهمية مقارنة بالثاني من حيث المنسوب المائي، كما أن الخنادق هي روافد الوديان، وهي أسماء تتردد بكثرة في المنطقة وغالبا ما تلحق بمعالم طبيعية أو بشرية كواد "ماكو" وواد "الكبير" وواد "الحد"... إلخ، وخندق "الوسطية" وخندق "أولاد استيتو"... إلخ؛

- أسماء العيون المائية: ساهمت العوامل المناخية والجيولوجية في بروز مجموعة من العيون، وقد اتخذت كلها أسماء مركبة كعين السياح وعين دانو وعين الشرافات وعين الشفاء وعين بئر الدلمة... إلخ. من جهة أخرى أضفى على العديد من العيون طابع القدسية.

3-2- أسماء لها حضور أمني وديني

نسجل، فيما يخص المعالم التي لها طابع أمني، في غياب أو -بالأحرى- صعوبة استنتاج باقي الأعلام الجغرافية الأخرى، حضور مدشرين يحملان اسم القلعة: أولهما يوجد شمال شرق شفشاون وينتمي قبليا إلى بني زجل الغمارية وإداريا إلى جماعة تلمبوط، والثاني يقع في الشمال الشرقي من الذروة الكلسية على الضفة اليسرى من عالية واد القنار، الذي ينتمي قبليا إلى بني زيات الغمارية أيضا وإداريا إلى جماعة سطيحة. والقلعة كما هو معلوم حصن منيع يشيد في موقع يصعب الوصول إليه، فتشيدها، إذن، جاء بغرض الحماية من الأعداء، والمدشران السالفين الذكر يتوفران على هذه الصفة، وحملهما للاسم العربي، إنما ينم عن احتمال ظهورهما بعد دخول الإسلام إلى المنطقة وتعريبها.

من ناحية أخرى، نجد مداشر تصطبغ بالعنصر الديني من قبيل ست حالات تحمل اسم الزاوية وهي: مدشر زاوية الهبطيين الذي يوجد جنوب غرب الذروة الكلسية وينتمي قبليا إلى الأخماس وإداريا إلى جماعة باب تازة، وفي الشمال الغربي وبالقرب من منطقة أقتشور يقع مدشر الزاوية، وينتمي إلى قبيلة بني زجل وإداريا ينتمي إلى جماعة تلمبوط، كما تصادف في الجنوب الشرقي من هذه الكتلة ثلاثة مداشر تنعت بالزاوية أولهما تلحق بصفة "الفوقية" وثانيهما باسم "النورتية" وثالثهما باسم "أعاشب" وكلها ذات أصل قبلي سلماني وإداريا تنتمي إلى جماعة بني سلمان، ثم في

⁴ - مدشران أحدهما يقع جنوب شرق الذروة الكلسية وينتمي إلى مشيخة بني بوحلو، جماعة بني سلمان: (خط الطول: 521,5 / خط العرض: 509 / الارتفاع: 963م) وآخر يتوطن وسط الذروة الكلسية وينتمي إلى مشيخة الوسطيين، جماعة تلمبوط.

المنطقة الحدودية بين جماعتي الحمراء والواد يوجد تجمع بشري آخر يحمل هذا الاسم، وإلى الشرق من المجال المدروس يتوطن مدشر جامع القبور الذي ينتمي قبليا إلى بني زيات وإداريا إلى جماعة اسطيحة. كما يضم المجال المدروس مجموعة من الأماكن المقدسة معظمها عبارة عن أضرحة لأولياء الله الصالحين و"خلوات" ومقابر وزوايا وجوامع، حيث تمثل سدس مجموع الأسماء المجردة، وغالبا ما اقترنت بتشكيلات نباتية لازالت سائدة إلى يومنا هذا.

2-6-4- أسماء ذات معالم نباتية

هناك مجموعة من الأعلام ارتبطت بالغطاء النباتي⁵، وإن كانت تمثيليتها ضعيفة، مقارنة مع ما هو ديني وطوبوغرافي ومائي، حيث تمثل نسبة لا تتجاوز 4% من مجموع الأسماء المجردة. وقد يكون هذا النقص حاصلا عن صعوبة إدراك دلالات مجموعة من المصطلحات الأمازيغية. وعموما نجد من بين هذه الأسماء: "الضروة" و"الدرادر" و"أفرسيو" و"غابة" و"الأغراس" و"الجنانات" و"العرعار" و"القصبات" و"المترون"... ونجد مداشر ذات دلالات نباتية، من قبيل تاسيفت (نوع من الأشجار). وكما ترك لنا الغطاء النباتي مسميات لصيقة بدلالاتها ساهمت الصخارة ومعها سيرورة التشكل أسامي شاهدة على هذه الظواهر الطبيعية الفريدة.

2-6-5- سيادة الكلس والدلوميت ترك أسماء ذات دلالات كارستية صخرية

تتردد ضمن المنطقة مجموعة من المسميات التي ارتبطت بسيرورة التعرية الكميائية (الكرستة)⁶ (الرسم البياني رقم 1) التي سادت ولازالت في المنطقة المدروسة، من قبيل: "الكدان" (ترسبات رصراصية Travertin) و"حجر الجير" و"القطرة دربي" و"الغار" و"الكهف" و"أسيان" التي تعني التجويف وأسُخ (ماسوخ محليا) الذي يعني مغارة كارستية وتورطين التي تعني حفر في حجر الكلس. ومن الناحية الصخرية تلبس مجموعة من الأماكن هذه الصفات، من قبيل "أدوقا" وهي صنف من الأتربة الصلصالية و"الحجرة" و"المعدن" و"الصفحة"... إلخ. بالإضافة إلى كل ما ذكر هناك أعلام جغرافية ترامت معانيها هنا وهناك، من الصعب تجميعها في بوتقة دلالية واحدة.

2-6-6- أسماء ذات دلالات مختلفة

من بين هذه الدلالات نجد ما ارتبط بالعنصر الاجتماعي/القبلي، حيث هناك العديد من المداشر سميت، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، نسبة إلى أعلام بشرية، من قبيل "بني" و"بو"، وهي صفات عربية. أما أمازيغيا، نجد أعلام تنتهي بحرف النون التي هي، كما أسلفنا، من المنظور الصرفي التركيبي، غالبا ما تكون جمع لكلمة. من هذه

⁵ تشير إلى أن هناك العديد من الأعلام الجغرافية المركبة ذات طابع ديني نباتي، لكن بحكم صيغتها الدينية والتي كانت حاسمة في بقاء هذه التشكيلات النباتية أثرت تصنيفها ضمن خانة الأعلام الجغرافية ذات الدلالة الدينية

⁶ سميت هذه الظاهرة نسبة إلى إقليم الكارست (Karst) في يوغسلافيا السابقة (منطقة البلقان، جنوب شرق أوروبا) المعروفة بسيادة هذا الصنف من التشكال، الذي يهتم جميع المناطق المتأثرة بفعل الإذابة النشطة للصخور القابلة للتحلل من قبيل الكلس والدلوميت.

المعالم، نصادف: "حميدن" و"إمونصورين" و"ازرهانن" و"الشريفين"... إلخ، كما تكتسب بعض الأسماء صبغة اجتماعية تضامنية من قبيل "أقرار" الذي يعني المخازن. من جهة أخرى هناك معالم ارتبط وجودها بديناميات هجرية حدثت خلال القرنين 17 و19 الميلاديين (El Gharbaoui, 1981: 377) من نواحي مدينة فاس، حيث يتوطن إسم مدشر يدعى زرهون⁷ شرق مركز باب تازة، الذي ينتمي قبلها إلى الأخماس العليا وإداريا إلى جماعة باب تازة.

خاتمة

خلاصة القول، إن المجال المدروس يعج بأعلام جغرافية متنوعة، مع هيمنة واضحة للمعالم ذات الأصول الأمازيغية التي استمرت في الصمود رغم التحول الثقافي العميق الذي مس المنطقة، خاصة بعد الفتح الإسلامي. ويظهر أن الخصوصيات الطبيعية لمجال الدراسة، والمتمثلة في سيادة التضاريس الجبلية والمناخ الرطب، أفرزت سيطرة واضحة للأعلام الجغرافية ذات الدلالة الطبوغرافية والمائية. ومع ذلك، يبدو أن هذه الاعلام في حاجة ماسة إلى الكثير من النيش والدراسات المعمقة. وإن قراءة تاريخ وجغرافية الكتلة الكلسية وهوامشها، مرهون بكشف الستار وفك شفرات مجموعة من الأسماء، وهذا يتطلب النبوغ والتضلع في اللغة الأمازيغية، إذ إن البحث في التاريخ العمراني والحضري والاجتماعي لبلاد المغرب كما يقول المؤرخ الطاهري أحمد "يتطلب التحقيق في المفاهيم وتدقيق الألفاظ. وفي تقديرنا أن إتقان اللغة الأمازيغية والاستعانة بالطوبونومية الشفوية من خلال المقابلات الميدانية كفيل بجعلنا أقل اندفاعا في التعامل مع جملة من النصوص العربية المحققة المتعلقة بالتاريخ الحضاري للغرب الإسلامي، ولا يخالجننا شك في أن مكانة الأمازيغية بالنسبة للبحث في تاريخ الغرب الإسلامي لا تقل أهمية عن الإغريقية واللاتينية بالنسبة للتاريخ القديم" (الطاهري أ. 1989: 180). وبذلك، فإن استنطاق أسماء مهمة هي عملية من شأنها أن تدلنا إلى إدراك ماض عريق وحقائق جغرافية وتاريخية وبشرية منسية.

⁷ - (خط الطول: 521,5 / خط العرض: 495,5 / الارتفاع: 880م).

المصادر والمراجع

- آيت باحسين (الحسين)، 2005، " الطوبونيميا والبيئة: بيئة بليونش- من خلال مصادر تاريخية وأدبية- نموذجاً"، في: " البيئة بالمغرب معطيات تاريخية وآفاق تنموية: منطقة درعة نموذجاً ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الندوات والمناظرات: رقم 9، الرباط، المغرب، صص. 231-284.
- التازي (عبد الهادي)، 1992، "الفكر الجغرافي عند المغاربة"، في: "الاسم الجغرافي: تراث وتواصل"، (أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية نظمت من طرف المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة العقارية والأشغال الطبوغرافية أيام 15، 16 و 17 أبريل 1992)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، صص. 27-36.
- زاهد (محمد)، 2008، "الطوبونيميا الأمازيغية من خلال بعض المصادر التاريخية"، مقال الكتروني.
- الأسعد (محمد) 1992، دلالة الأعلام الجغرافية وإدراك المشهد الريفي بالمغرب: محاولة منهجية لتنميط الأعلام الجغرافية"، في: "الاسم الجغرافي: تراث وتواصل"، (أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية نظمت من طرف المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة العقارية والأشغال الطبوغرافية أيام 15، 16 و 17 أبريل 1992)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، صص. 157-166.
- الطاهري (أحمد)، 1989، "فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد النكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي"، منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 325 صفحة.
- العويّنة (عبد الله) والميلود (شاكر)، 1992، "أهمية الأعلام الجغرافية في تصور البيئات القديمة: حالة منطقة بوخوالي وبني يزناسن (المغرب الشمالي الشرقي)"، في: "الاسم الجغرافي: تراث وتواصل"، (أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية نظمت من طرف المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة العقارية والأشغال الطبوغرافية أيام 15، 16 و 17 أبريل 1992)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، صص. 53-60.
- كربوط (محمد)، 1992، "الأسماء الجغرافية كمنطلق لدراسة تاريخ التعمير والاستغلال الفلاحي بالأرياف المغربية: حالة محاط تاغيت بالأطلس المتوسط"، في:

الاسم الجغرافي تراث وتواصل"، (أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية نظمت من طرف المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة العقارية والأشغال الطبوغرافية أيام 15، 16 و 17 أبريل 1992)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، صص. 111-126.

ABDELLAOUI, H., 2017, *Les bases de données des noms géographiques au service du développement durable et du patrimoine immatériel national*, 11th United Nations Conference on the Standardization of Geographical Names, New York.

El GHARBAOUI, A., 1981, *La terre et l'homme dans la péninsule tingitane. Essai sur l'homme et le milieu naturel dans le Rif occidental*, (Thèse de Doctorat d'État, 1980), Rabat, Publications de l'Institut Scientifique, Série: Géologie et Géographie Physique, n° 15, Université Mohamed V, 439 p.

HELLELAND, B., 2012, "Place names and identities", C.-E. Ore & S. Wikstrøm (eds.), *Oslo Studies in Language*, 4(2), pp.117–131.

WOODMAN, P., 2014, "The interconnections between toponymy and identity", *Review of Historical Geography and Toponomastics*, vol. IX no., pp. 7-20.

Cartes topographiques :

Division de la carte, Carte topographiques, 1/50 000, Direction de la Conservation Foncière et des Travaux Topographiques, Rabat, Maroc.

- Feuille NI-30-XIX-2b : Bab Taza, 1969,
- Feuille NI-30-XIX-2d : Talembote, 1969,
- Feuille NI-30-XX-1a : Bab Berret, 1969,
- Feuille NI-30-XX-1c : Bou Ahmed, 1969,
- Feuille NI-30-XIX-2a : Chaouen, 1969,
- Feuille NI-30-XIX-2c : Souk Larbaa Beni Hassane, 1969,
- Feuille NI-30-XIX-4a : Tétouan, 1969.

Agence nationale de la conservation foncière, du cadastre et de la cartographie, Direction de la cartographie (Rabat, Maroc):

Cartes topographiques, 1/25.000 : Tétouan-Al Azhar ; 2007 ; Tétouan-Sidi Al Mandri ; 2007 ; Amsa ; 2007 ; Zinat ; 2007 ; Oued Lakhmis ; 2007 ; Beni Saïd ; 2006 ; Oued Laou ; 2006 ; El Hamra ; 2007 ; Talambot ; 2007 ; Souk Lhad Beni Ziat ; 2007 ; Aïn Hjar; 2006.